

## التراث والتقدم

2017/3/1

إن الدعوات التي يطلقها معظم المثقفين التقليديين من العرب بضرورة التمسك بالتراث والقيم الثقافية التقليدية، وذلك من أجل حماية المجتمعات العربية من عواصف التغيير التي تعصف بهم من كل جانب، هي دعواتٌ تعمل، غالباً من دون وعي، على تكريس التخلف في الذهن وعلى الأرض. الأمر الذي يتسبب في تعميق إحساس الشعوب التي تعيش فترات تحول حضارية، كالعرب، بالإحباط حين ترى حنينها للماضي يترنح أمام قوى تغيير مادية وعلمية وتكنولوجية تُغريه على معانقتها دون أن تكون لديه الشجاعة الكافية للتخلي عن عواطفه واستخدام عقله. وفيما يقوم أولئك المثقفون برفع شعارات غوغائية تقوم على تمجيد الماضي ونعته بالعصر الذهبي، يهملون ضرورة النظر بجديّة وعلمية لمصالح العرب وموقعهم المتدني من سائر الأمم، والسائر بثبات نحو الانحدار على سلم الحضارات التي تتحداهم صباح مساء. إن الحنين للماضي هو حنين لواقع حياتي لم يعشه عربي أو غير عربي يتعرض اليوم لتيارات التغيير الكونية، الأمر الذي يجعل الحنين هذا مجرد خيال لا قيمة له.

إن مقولات "التاريخ يعيد نفسه"، و"من لا ماضي له لا مستقبل له" هي شعارات غوغائية تتصف بالجهل والبُعد عن الواقع. فعلى سبيل المثال، لا يختلف عاقلان من أبناء الأمة العربية على أن اليمن السعيد وتاريخه المجيد لا يُشيران اليوم إلى أنه سيكون له شأنٌ في المستقبل القريب، وأن شعوب أمريكا الشمالية التي لا يزيد عمرها كثيراً على 300 سنة من المتوقع أن تستمر في احتلال مركز مرموق بين الأمم على مدى المستقبل المنظور. إن التاريخ الإنساني الذي أثبت قدرته، بل تصميمه على تجاوز نفسه يوماً بعد يوم يقوم في كل مرحلة حضارية بجرف المقولات القديمة وهدم صروحها وقلعها وتحويلها إلى شعاراتٍ عاجزة عن فعل أيّ شيء سوى إبطاء حركة التاريخ وإضعاف حركية المجتمع الذي تنشط فيه. فحركة التاريخ تتسبب في انهاء منطق كل زمن قديم وحكمته، وصلاحيّة النظريات والقيم والتقاليد التي حكمت العلاقات الاجتماعية والسياسية والتعاقدات الاقتصادية بين الأفراد والجماعات التي عاشت في ظلاله. كما أن التاريخ لا يكرر نفسه أبداً، فالانتقال من حضارة لأخرى يعني حدوث قطيعة بين مكونات الحضارة الأولى والثانية؛ الأمر الذي يعني خروج المجتمع القديم، ثقافة وعلاقات عمل وإنتاجاً وقيماً وفكراً وطرق تفكير من التاريخ الحضاري.

ومع انتهاء صلاحية التاريخ القديم ومنطقه تضعف العلاقات التقليدية، وتتسارع وتيرة التحول في نظم العمل وعلاقات الإنتاج الاقتصادية، وتتبدل علاقة الشعب بالسلطة السياسية، ويتنازل المجتمع مرعماً عن الحكمة المألوفة، وما يرتبط بها من تقاليد وسلوكيات فردية وجماعية. لذلك تشكل مراحل الانتقال الحضارية فترات انقطاع تاريخية تتوقف فيها وعندها مسيرة الحضارة القديمة، ويتراجع بسببها ومعها دور قوى الاستقرار والتحكم التقليدية، ويتم خلالها إعداد التربة لاستقبال مجتمع جديد واقتصاد جديد وثقافة مختلفة كثيراً عما سبقها من حيث المحتوى والدور المجتمعي. ومع بدء الحضارة التالية، تدخل الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القديمة مرحلة تحول جذرية تبعدها عن جذورها. وهذا يقود الشعوب التي ترفض السير في ركب الحضارة الجديدة وتصرّ

على التمسك بطرق حياتها التقليدية وتراثها إلى الخروج من التاريخ والعيش على هامشه، والقبول طواعيةً بالتخلف عن العصر، والتبعية لدوله القائدة وأفكاره القيادية ونظرياته العلمية الرائدة.

إن الانتقال من مرحلة حضارية لأخرى يعني حدوث تطور نوعي في مختلف نواحي الحياة، الأمر الذي يجعل المجتمع الجديد أكثر تقدماً وقوة من المجتمع القديم. أما التقدم في هذا السياق فيعني أن المجتمع الجديد يصبح أكثر إنتاجاً من النواحي الاقتصادية، وأكثر عطاءً من النواحي الفكرية والعلمية والثقافية، وأكثر حرية من النواحي السياسية، وأكثر قوة من النواحي العسكرية، وأقوى إرادة على الفعل. وفي الواقع تشكل التطورات النوعية في أوجه الحياة الفكرية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية أهم القوى التي تسهم في ميلاد حركات التغيير المجتمعية، وتقود بعض الشعوب إلى الانتقال من حضارة لأخرى. ومع استكمال مرحلة الانتقال الحضارية تصبح الشعوب التي ما تزال تعيش في الحقبة الحضارية السابقة عاجزة عن منافسة المجتمعات الجديدة؛ الأمر الذي يجعلها تتحول إلى مجتمعات ودول تابعة تبعية شبه كاملة لغيرها من مجتمعات تعيش في حقبة حضارية أكثر تقدماً. ومع التبعية، تطل الهيمنة برأسها المخيف وعقلها المجرم من خلف أسوار القيم التقليدية لتقوم بالسيطرة على الشعوب الفقيرة والضعيفة، واحتلال اوطانها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، واستغلال مواردها واستعباد شعوبها.

وعلى من يشك في هذا الأمر أن يقارن حال مجتمع بدوي رفض اللحاق بالمجتمع الزراعي، وحال مجتمع زراعي رفض اللحاق بالمجتمع الصناعي. فالمجتمع الأول يعيش حياته متخلفاً عن المجتمع الثاني في كافة نواحي الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية. وهذا يعني أن تحقيق النهضة والتقدم واللاحق بالعصر لا يتم بالبكاء على الماضي ولا بالترحم على روحه وأرواح الأقدميين الطاهرة، وإنما بالعمل على تقليد الشعوب التي حققت إنجازات حضارية مرموقة، وتشبيد المؤسسات التربوية والاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية التي تكفل لها المشاركة في إنجازات العصر الجديد وصنع تاريخه، على أن تكون تلك المؤسسات قد تم تطويرها لتناسب الواقع الذي تعيش فيه، مع الحرص على مواكبة كل تقدم يحدث في العالم المحيط بها.